

الفصل السابع

قال الشيخ :

- أثبت العلم الحديث أن الدماغ لا يعرف لغة إلا لغة الكهرباء .
والمعلومات التي يتم جمعها عن طريق الحواس تحتزن في الدماغ بواسطة النبض
الكهربائي ، ولا يعرف أحد حتى الآن الرموز الكهربائية التي استخدمها الدماغ
لخزن هذه المواد .

كان يتكلم شاخص البصر وكأنه يخاطب إنساناً غير منظور . . ثم انتبه
فجأة ونظر إلي وقال :

- أترى إلى أين وصل نشاط الكهرباء ؟ قل لي هل فكرت أنت يوماً كيف
تحفظ ذاكرتك المعلومات ؟

أجبت على استحياء :

لطالما فكرت في هذا يا سيدي . العجيب أنني لا أشعر أن الذاكرة
حاسة . الإحساس الذي يداخلي هو أنها ملتصقة بي ، بنفسي ، بذاتي . أريد
أن أتذكر شيئاً فأذكره في الحال ، وأتذكر أحداثاً وقعت لي منذ زمن طويل وكأنها
وقعت في الأمس ، وقد أسمع صوت إنسان لم أره منذ أعوام فإذا بي أذكر فجأة
أين لقيته وكيف عرفته . هل تصدق يا سيدي أنني أتساءل دائماً هل في استطاعة

أعظم كومبيوتر أن ينافس الذاكرة في الاستجابة لتقديم ما هو مطلوب منها خلال زمن لا يتجاوز الثواني ؟

- تبسم وقال :
- ومع هذا فذاكرتك تخونك أحياناً .
- هذا صحيح .
- تريد أن تتذكر أمراً فلا تستطيع .
- أجل .
- وتحاول وتلح فتفشل .
- هذا يقع بالفعل .
- وتبذل جهدك لكي تتذكر فتظهر وكأنك تحاول أن ترغب آلة لديك على العمل فلا تستجيب .
- أجل هذا صحيح .
- ويحدث أنك تتذكر فجأة ، وتلقائياً ، ما كنت أردت أن تذكره .
- هذا ما يحدث يا سيدي .

- الذاكرة حاسة مذهشة .. تستقبل على مدى العمر معلومات لا تحصى ومن جميع الأنواع ، ولها نشاطها الخاص ، فهي تحفظ أشياء وتنسى أشياء ، وتكون قوية في الصغر ثم تتضاءل قوتها مع الأيام وتضعف في الكبر . ولطالما سمعنا عن مرضى فقدوا الذاكرة تماماً فلم يعودوا يذكرون عن ماضيهم شيئاً . . لم يعودوا يعرفون إلا أنهم أبناء اليوم الذي يعيشون فيه . ويبذل الأطباء المتخصصون وسعهم لإعادة الذاكرة المفقودة إلى المريض ، ولهم في هذا وسائل . إذن نحن أمام حاسة خارجة عن ذاتنا معينة لنا ، هي معنا وليست إيانا .

قلت هازأً رأسي :

- جميل هذا القول ، هي معنا وليست إيانا .
- التفت ، ومد يده إلى المسجلة القريبة منه وأدارها فصدح صوت أم كلثوم .

واستمعت لحظات ثم وجدتي أتساءل على الرغم مني : ماذا أراد بهذا مثلاً هذه المرة ؟ لقد أسمعني صوتها لتحقيق غرض في المرة الأولى فهل تراه يفعل مثل هذا الآن ؟

وسألني :

- هل اتفق لك مرة أن كنت سائراً في الطريق وقد استغرقك التفكير فإذا بصوت يناديك فتنبهه فإذا بصديق يقول لك : إلى أين يا أخانا أين كنت شاردًا ؟ . ويتبين لك أنك لم تر صديقك رغم أنكما تقابلتما في الطريق لشدة استغراقك في التفكير ؟

- هذا يقع لي كثيراً يا سيدي ، ولطالما لامني أصدقائي على شرودي بالفعل .

- إذن كنت تبصر ولا تبصر إن صح القول .

هزرت رأسي موافقاً .

- وماذا تغني أم كلثوم .

انتبهت فجأة وتساءلت :

- نعم ؟

- سألتك ماذا تغني ؟

أصغيت لأعرف ما كانت تغني ، فإذا بالشيخ يبسط يده ويهز سبابته كالبنءول قائلاً :

- لا ، ليس الآن .. فات الأوان . كنت تسمع ولا تسمع . كنت تسمع

أم كلثوم ولا تميز ما تسمع .. أي أن أذنك لم تنقل إليك صوتاً رغم أنها نقلته ، أليس هذا ما حدث ؟

فهمت ما أراد الشيخ أن يرمي إليه فأطرقت برأسي ، بينما تابع هو :

- هل تعلم أن من عادي ألا أسمع غناء أو موسيقى إلا حين أكون

وحيداً ، وحين أكون راغباً في السماع .. والذين يسمعون الغناء ويتحدثون لا

يسمعون الغناء ، لا يسمعون وإن كانوا يسمعون فما جعل الله لأحد من قلبين في جوفه .

ومد الشيخ يده وأوقف المسجلة ، وفكرتُ : يا إلهي ، هذا الإنسان لا يدع شاردة ولا واردة إلا فكر فيها . وألقى نظرة علي ، نظرة من النوع التي تنفذ كالشعاع ، كالوميض ، وقال :

- ألم تستوقفك العبارة الأخيرة ؟

- قلت لم يجعل الله لأحد من قلبين في جوفه ؟

قلبت شفتي ، في حين اكتسى وجهه فجأة بطابع الجد العميق وتابع قائلاً :

- لاحظ الصلة بين الحواس والقلب ، لاحظ الصلة وعدم الصلة . الحواس موجودة لخدمتنا ولكنها ليست إيانا . الحواس الظاهرة والباطنة ، هي لنا وليست لنا ، ولو كانت لنا بالكلية لما استعصت علينا أحياناً كما تستعصي الذاكرة . إنها بالفعل مثل خادم مخلص ، والخادم يخدمنا مع الاحتفاظ باستقلاله ، وقد يخطيء وقد يتلكأ وقد يمرض وقد وقد . .

وفجأة رشقني بنظرة من نظراته النفاذة القاسية كالفولاذ وسألني :

- كم لك من العمر ؟

عجبت وأجبت :

- أقرب من الخمسين يا سيدي .

- إذن أنت تعاني فتوراً في القوة الجنسية ، أليس كذلك ؟

اتسعت عياني ، اتسعت بحركة لا إرادية . فلقد فاجأني الشيخ بما قاله إذ ما كنت أتصور أن الشيخ يمكن أن يتحدث بلغة كلغة الجنس . . ثم إن ما قاله صحيح ، صحيح ، يا إلهي . لقد ظل يتأملني وكأنه ضبطني متلبساً بجرم وتابع قائلاً :

- تعيش الكهولة يا بني وودعت الرجولة . لقد انتقلت من طور إلى

طور . قال الامام الغزالي واصفاً هذا الحال : (بقاء الرغبة مع فتور القوى) .
فالإنسان يرغب ولكنه يجد نفسه عاجزاً عن تحقيق ما يرغب ، أو أن به فتوراً كما
حدد الغزالي . . ومع هذا ففتور القوى خير من خمودها .

فزعت مما قال وساءلت نفسي : وهل ستخمد القوى نهائياً ؟

وتابع الشيخ قائلاً :

- أجل ، ستبلغ سنأ يصبح جسدك فيه عاجزاً ، عاجزاً مثل رجلي هذه
التي أتوكأ عليها وأساعدتها بالعصا ولا أحس فيها أي إحساس . . إنها مني ومع
هذا فهي منفصلة عني . أليس هذا هو واقع الحال يا بني ؟ مثل الإنسان في فتور
القوى أو عجزها كممثل فارس صنديد كان سيد الساح يحول فيه على حصانه
ويحول ، ثم إذا بالحصان يهرم ويضعف وإذا الفارس لم يعد فارساً ، أعني أنه لم
يعد يملك حصاناً يأمره فيليه ويمطيه فيكون خير مطية ويسابق به الريح ويفاخر
به العدو والصيد . أليس جسدك حصانك يا بني ؟ الجسد مطية لا غير ، مطية
للنفس يلبي أوامرها ولكنه ليس هي .

كان ما قاله صحيحاً ، صحيحاً تماماً .

- والآن ، حك لي قدمي .

انتبهت وقلت لأتأكد مما سمعت :

- أمر سيدي ؟

- حك لي قدمي .

قال هذا ومد رجله أمامي وكشف عن ساقه مخرجاً قدمه من المشاية ثم
نظر إلي . . ولا أدري ما الذي دخلني . . لقد تقدمت منه وأنا أعاني ضرباً معه
المشاعر المتناقضة . فلسبب ما شعرت بالنفور مما أنا مقبل عليه . أنا أحك
قدمه ؟ ومع هذا فللشيخ علي دالة فهو معلمي وسيدي ومولاي ، غير أنا ما
أزعجني بخاصة نبرة صوته حين طلب إلي ما طلب . كان في صوته غلظة ،
أجل غلظة لم أعتدها منه .

وانحنيت ومددت يدي إلى قدمه التي كانت تنتظر . . قدم معروقة هزيلة
طويلة الأصابع . آه ، لم هذا الشعور بالقرف يزداد في ؟ الشيخ لو بصق علي
لكان علي أن أتحمّل . وما أن كدت ألمس قدمه حتى سحبها وانحنى وأمسك
بكتفي قائلاً بصوته الذي عاد يفيض حناناً :

- إنفض يا بني .
- ونهضت . ونظرتني مبتسماً ثم سألتني :
- طلبت إليك أمراً فلبيتني .
- قلت بصوت خفيض :
- هذا واجبي .
- سمعت قولاً فتحرّكت فما الذي حرّكك ؟
- قولك يا سيدي .
- إذن القول تحول إلى فعل .
- يا إلهي ، هذا الإنسان كم هو عميق ، عميق . . إنه يريد أن يضرب إذن
مثلاً . . وتابع هو قائلاً :
- ما الذي حرّك أعضائك لتلبية الطلب ؟
- عقلي بالطبع .
- وكيف حرّك عقلك أعضائك ؟
- أجبت :

- نبه المراكز العصبية في الدماغ ، والمراكز العصبية نقلت الأمر فتحرّكت
الأعضاء .

- وكيف تنبّهت المراكز العصبية في الدماغ ؟
- قلت معلناً استسلامي :

- أنت تريد الصلة بين العقل والحس ، والموضوع غامض يا سيدي
والأقوال فيه متضاربة .

- والأفكار ، كيف تصدر عن الدماغ ؟

قلت :

- هذا هو الطرف الثاني من القضية الغامضة . الماديون مثلاً يقولون إن جسيمات ذرات الخلايا العصبية في الدماغ تتصادم فتنتج فكراً .

- وكيف يحللون دور الإرادة ؟

- الإرادة ؟

- أجل ، إذا فسرنا انتاج الفكر على هذا النحو فإن الأفكار تكون عندئذ متشابهة . . في حين نرى أن الماديين يرسمون في القصص والأفلام صوراً للإنسان ، يرسمون للشجاع صورة وكذلك للجبان . جنديان في خط النار يواجهان موقفاً حرجاً للغاية ، فإذا بأحدهما يفر من المواجهة في حين يقدم الآخر على التضحية بنفسه في سبيل الآخرين . وهذا جميل ، ولكن كيف تستطيع النظرية القائلة إن الأفكار نتيجة تصادم جسيمات الذرات في الخلايا الدماغية أن تبين لنا لم اختار أحد الجنديين موقفاً يناقض موقف الجندي الآخر ؟ لم كان أحدهما شجاعاً والآخر جباناً ؟

- إنهم يردون هذا إلى التربية و . . والبيئة .

- ولكن لنفترض أن الجنديين شقيقان ، وقد يحدث هذا . . من أب واحد وأم واحدة وحي واحد ومدرسة واحدة وبيئة واحدة . .

فكرت وفكرت ثم قلت :

- لا أدري يا سيدي .

- سبحان الله ، هم يحثون على الشجاعة ولا يعترفون بالإرادة الحرة ، أو أنهم يتبنون الإرادة الحرة ولا يستطيعون تفسير مصدرها ما داموا يرجعون كل فكر إلى تصادم جسيمات الذرة في خلايا الدماغ .

كان ما يقوله صحيحاً ، وما الذي يقوله الشيخ لا يكون صحيحاً ؟

واستطرد هو بعد لحظات :

- والآن لنعد إلى موضوعنا . سمعت طلبي فأردت تليقي ، والإرادة فكر والفكر عقل . . والحركة عضوية ، فما الذي نبه المراكز العصبية في الدماغ حتى تحركت الأعضاء ؟

وجدتني عاجزاً عن الإجابة . وإذا كان علماء العصر الحديث المتخصصون قد عجزوا عن ردم الهوة الفاصلة بين العقل والجسد فهل بوسعي أنا تحقيق ذلك ؟

حاولت أن أستنجد بالفلسفة فقلت :

- إن للنفس قواها يا سيدي ، لها حواسها الظاهرة والباطنة .

- وهل نسيت ما نتج معنا قبل قليل من نظرنا إلى الحواس ؟ أما لاحظت أن هناك انفصلاً بين النفس والحواس ؟ لقد اتضح بالتجربة أن هذه الحواس تعمل عملها أو لا تعمل عملها في حين تكون النفس في معزل عن ذلك . كانت حاسة السمع تعمل ولم تكن تصغي إلى ما توصله إليك من أصوات ، وكانت عينك تريان ولكنك كنت شارداً فلم تر صديقك . . ولقد اعترفت بأنك تستنجد أحياناً بالذاكرة فتخونك ثم تلييك تلقائياً ، ثم ثبت أن قوى الحواس لها عمر وقوة وضعف فكيف تقول إن للنفس قوى وقد اتضح أن هناك انفصلاً بين النفس وقواها ؟

قلت :

- ربما كان للموضوع صلة بالنفس العاقلة والنفس الحيوانية . فالوعي من سمات النفس العاقلة وربما كان انشغال النفس العاقلة بموضوع قد شغلها عن عمل النفس الحيوانية .

- حسناً هل تذكر الرؤيا التي قصصتها عليك حين رأيت النفس العاقلة تستعد للهبوط إلى عالم العناصر لتنطبع فيه وكيف برزت النفس الحيوانية الممثلة في امرأة ترتدي سترة من الفرو الأبيض ومعها كلبان أبيضان ؟

- أجل يا سيدي .

- وعبرنا قائلين إن النفس الحيوانية هي أيضاً ذات وجود ما هوي كائن في
النور .

- أجل .

- إذن بدنك حصانك الذي يحملك يتحرك بقوى نفسك الحيوانية فهو
يتحرك بالتالي بقوى النور الماهوي مليئاً بإرادتك أنت ، وضربنا مثلاً على ذلك
بالفارس الذي يمتطي حصانه وينزل إلى الساح فيكر فيه ويفر وحصانه مطواع
بين يديه .

وسكت قليلاً ثم أضاف قائلاً :

- والحصان غير الفارس والفارس غير الحصان .

فكرت وأنا أحس بالتعب : (أتعبني هذا الشيخ .. ماذا يريد
بالتحديد ؟) . وتابع قائلاً :

- والنفس الحيوانية منبثقة عن النفس الكلية . . وبالتالي تنتهي إلى نتيجة
مفادها أن الأجساد الجزئية عند التصور تشكل أيضاً جسماً كلياً متحركاً بقوى
النفس الحيوانية الكلية المنبثقة عن النفس الكلية التي تنبثق بدورها عن العقل
الكلي الذي هو إشعاع النور الإلهي . ولقد أثبتنا أن تكثف النور اللطيف أدى
إلى ظهور النور الكثيف والنور الكثيف أشعة كهربائية تتشكل لتكوين العناصر
فالأجسام وعليه فالجسم الكلي هو تعين للنور متحرك به وليس ثم جسم على
الحقيقة بل هناك ظهور للنور في صورة الأجسام ، والنتيجة أن ما يحملك ليس
الجسم بل النور .

قال هذا ثم وضع أصابعه على طرف الطاولة مغمضاً عينيه قليلاً وقد بدا
عليه الإجهاد ، ثم عاد ففتحهما وتابع قائلاً :

- ولنعد إلى إرادتك أنت . تريد أن تحرك يدك فتحركها وفسرت هذا
بتنبية المراكز العصبية في الدماغ فهل عرفت الوسيلة إلى تحقيق ذلك ؟ ما الصلة
بين المعقول والمحسوس ؟

قلت مبتسماً :

- أنت تجعل النور هو الوسيلة .

- جيد ، ولكن كيف ؟

- أنت جعلت الجسم كله نوراً ، أنت نفيت الجسم .

لفظت الكلمات الأخيرة بنبرة مشحونة برد فعل غرزي على موقف الشيخ من الجسم ، من جسمي أنا ، وقد جعله أثراً بعد عين . وضحك هو ، ضحك حتى بدت نواجذه ثم قال :

- تفكر أنت ، تريد شيئاً ، فيتدخل النور . تنبيه المراكز العصبية في الدماغ يتم بواسطة النور ، لأن النور وحده هو الصلة بين الفكر والمادة ، هو الوسيط الوحيد بين المعقول والمحسوس ، وعليه فإنك إذا أردت أن تحك جسمك فإن عليك أن تستعين بالنور أي بالله ويترتب على ذلك أن الفعل لله ، والكسب للعبد كما تقول الصوفية وهذا معنى قولهم لا حركة ولا سكون إلا بأمره ، وإلى هذا المدى ينطبق قوله تعالى في قوله ﴿ كن فيكون ﴾ . أنت لا تحرك ساكناً إلا بإذن الله . تريد والنور يفعل ، وأثبتنا أن الجسم أصله نور والفعل فيه نور وتركيبه من النور .

وفجأة أنسد رؤوس أصابعه على الطاولة ومال عليها وسألني :

- هل عرفت الآن البراق الذي امتطاه النبي حتى عرج إلى السماء ؟

فاجأني قوله فقلت :

- البراق ؟ براق النبي ؟

- أجل براق النبي . البراق برق ، والبرق كهرباء ، والكهرباء مطية

الرسول . فجسمها جسم حيوان ورأسها رأس آدمي ، وهي ترقى في السماء ، في سماء المعقولات . هل فهمت الآن ما معنى اتخاذ النبي هذه المطية ؟